بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم

د. صلاح أحمد رمضان حسين
مدرس في قسم البلاغة والنقد بالكلية

مقدمة

نحمد الله ــ تعالى ــ ونثني عليه بما هو أهله ، ونصلي ونسلم على صفوة خلقه وإمام أنبيائه سيدنا محمد ، أفصح العرب لساناً ، وأوضحهم بياناً وأعذبهم نطقاً ، وأقومهم حجة ، وأهداهم إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

أما بعد

فإن القرآن الكريم بحر زاخر بالكنوز والنفائس ، ومن أراد الحصول على لآلئه ودرره فعليه أن يغوص في أعماقه ، فلآلئه لا تنفد ، ودرره لا تنتهي ، وهو محيط مترامي الأطراف لا تحده عقول البشر ، تلتقي عنده نهايات الفضيلة كلها على تباعد ما بين أطرافها .. أنزله رب العزة على قلب عبده ورسوله محمد بن عبد الله معجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، فأخرس به أصوات الشرك ، ونكس به أعلام الكفر ، وأذل به أعناق الجبابرة .

ومن ثمّ كثرت بحوث القرآن ، ونشطت الأقلام ، وتبارت الأفهام ، وتوافرت الجهود واستجمع العلماء والمفكرون قوتهم لدراسة هذا الكتاب المعجز ، والوقوف على سر البلاغة والإعجاز فيه . ورغم ذلك لا يزال هذا المورد معيناً لا ينضب ، يرده رواد الفكر وأساطين البيان فيتزودون بأعظم زاد ، ومن عجب أنك كلما زدته إمعاناً زادك متعة ، وكلما أعطيته من جهودك أعطاك من عذب ثماره ما ينعش نفسك ويوقظ فكرك ، ويصقل ذوقك .

وهذا البحث المتواضع : (**بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم**) محاولة أمينة ، أحاول من خلالها إبراز بلاغة هذا الأسلوب البديعي ، وكيف وظفه النظم القرآني في حاق موضعه ، وكيف نهض بالمعنى نهوضاً حقق الإفادة والإقناع في آنٍ واحد .

وقد جاء هذا البحث في مبحثين : ــ

المبحث الأول : مفهوم المشاكلة، وصورها، وقيمتها البلاغية، والمشاكلة بين الحقيقة والمجاز.

المبحث الثاني : بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم .

والله أسال أن يجعل هذه الدراسة خالصة لوجهه الكريم ، وأن يثيبني بحسن النيـة إن فاتني حسن العمل ، فإن الكمال لله وحده ، وصدق القائل :

عزَّ الكمال فما يحظى به بشر فكل خَلْقٍ وإنْ لم يَدْرِ ذُو عَابِ

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د . صلاح أحمد رمضان حسين

المبحث الأول
مفهوم المشاكلة، صورها، قيمتها البلاغية، المشاكلة بين الحقيقة

مفهوم المشاكلة في اللغة :

تدور المشاكلة في اللغة حول المماثلة ، والمشابهة ، والموافقة . قال ابن منظور: " الشَّكْلُ بالفتح : الشِّبْه والمِثْل ، تقول : هذا على شكل هذا ، أي : على مثاله ، وفلانٌ شَكْلُ فلانٍ ، أي : مثله في حالاته ، ويقال : هذا من شكل هذا أي : من ضربه ، وهذا أشكل بهذا أي : أشبه ، والمشاكلة : الموافقة "[١] .

المشاكلة في التراث البلاغي :

يعدُّ الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ أول من أدرك مضمون المشاكلة وإن كان لم يسمها باسم (المشاكلة) ... وهذا شيء لا يقدح في أوليته وسبقه ؛ لأن المصطلحات البلاغية لم تكن قد حُددت ووضعت لها الضوابط ... يقول الفراء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٢]" فإن قال قائل : أرأيت قوله : فلا عدوان إلا على الظالمين . عدوان هو وقد أباحه الله لهم ؟ قلنا : ليس بعدوانٍ في المعنى ، وإنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله ، ألا ترى أنه قال : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [٣]، فالعدوان من المشركين في اللفظ ظلم في المعنى ، والعدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص ، فلا يكون القصاص ظلماً وإن كان لفظه واحدا ، ومثله قوله ـ تبارك وتعالى ـ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾[٤] وليست من الله على مثل معناها من المسيء ؛ لأنها جزاء "[٥].

---

[١] لسان العرب لابن منظور مادة : (شكل) .

[٢] البقرة / ١٩٣ .

[٣] البقرة / ١٩٤ .

[٤] الشورى / ٢٤ .

[٥] معاني القرآن للفراء ١ / ١١٦ ، ١١٧ .

أما أول من أطلق مصطلح (المشاكلة) على هذا اللون البديعي ، فهو أبو علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ . [١]

وقد تناول بعض العلماء هذا اللون البديعي تحت مسميات مختلفة ، فقد تحدث المبرد المتوفى سنة ٢٨٥هـ عن هذا اللون البديعي وأطلق عليه مصطلح (المزج)[٢].

وأدخل الرماني المتوفى سنة ٣٨٦ هـ بعض شواهد المشاكلة في (جناس المزاوجة) وذكر شواهد منها قوله – تعالى–:﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾[٣] قال : " أي : جازوه بما يستحق طريق العدل ، إلا أنه استعير للثاني لفظ الاعتداء لتأكيد الدلالة على المساواة في المقدار ... ومنه قوله ــ تعالى ــ : ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾[٤] أي: مجازيهم على خديعتهم، ووبال الخديعة راجع عليهم، والعرب تقول: الجزاء بالجزاء. والأول ليس بجزاء، وإنما هو على مزاوجة الكلام"[٥].

وأدخل أبو هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ بعض شواهد المشاكلة في باب (المقابلة) ، وعرّف المقابلة بأنها : (إيراد الكلام ثم مقابلته بمثله في المعنى أو اللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة) . ثم يقول : فأما ما كان منها في المعنى فهو مقابلة الفعل بالفعل ...ويذكر لهذا القسم شواهد تدخل في باب المشاكلة ، منها قوله –تعالى– : ﴿ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾[٦] وقوله – تعالى–: ﴿ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا ﴾[٧] وغير ذلك [٨].

---

[١] راجع : أثر النحاة في البحث البلاغي للدكتور / عبد القادر حسين ص ١٦٤ .

[٢] ما اتفق لفظه واختلف معناه ص / ١٢ ، ١٣ نقلاً عن أثر النحاة في البحث البلاغي د / عبد القادر حسين ص ١٦٤ .

[٣] البقرة / ١٩٤ .

[٤] النساء / ١٤٢ .

[٥] النكت في إعجاز القرآن للرماني ص ٩٩ . ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن .

[٦] التوبة / ٦٧ .

[٧] النمل / ٥٠ .

[٨] راجع : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ص / ٣٤٦ .

وقد حذا بعض العلماء حذو العسكري في إدخال بعض شواهد (المشاكلة) في باب (المقابلة) منهم : الشريف الرضي المتوفى سنة ٤٠٦ هـ .. [١] وابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٧ هـ [٢]. والعلوي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ [٣].

حتى إن الزمخشري قد أطلق على بعض شواهد المشاكلة مصطلح (المقابلة) ، وعلى بعضها الآخر مصطلح (المزاوجة) .

ففي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ﴾ [٤] قال الزمخشري: " قال: (إنَّا نسيناكم) على المقابلة، أي : جازيناكم جزاء نسيانكم "[٥].

وفي قوله ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [٦] قال الزمخشري : " سمي الفعل الأول باسم الثاني للمزاوجة " [٧].

وقد عرَّف السكاكي المشاكلة بأنها: "ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته"[٨] وزاد الخطيب القزويني على هذا التعريف : " تحقيقاً أو تقديراً " [٩] وهذا هو التعريف المرتضى عند جمهور البلاغيين ، والضابط لمفهوم المشاكلة .

صور المشاكلة :

الصورة الأولى : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته .

وهذه الصورة تقع المشاكلة فيها تحقيقية وتقديرية.فمن أمثلة التحقيقية قول الشاعر:[١٠]

---

(١) راجع : تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص / ١٢٣ .

(٢) راجع : المثل السائر لابن الأثير ٣ / ١٥٩ .

(٣) راجع : الطراز للعلوي ٢ / ٣٨٧ .

(٤) السجدة / ١٤ .

(٥) الكشاف للزمخشري ٥ / ٣٢ .

(٦) النحل / ١٢٦ .

(٧) الكشاف ٣ / ٤٨٦ .

(٨) مفتاح العلوم للسكاكي ص / ١٧٩ .

(٩) الإيضاح للخطيب القزويني ص / ٣٢٧ .

(١٠) هو: أبو الرقعمق أحمد بن محمد الأنطاكي ، ومن خبر هذا الشعر أن قائله كان له أصحاب يجتمع بهم فيأكل اللحم ويشرب الخمر ، وذات ليلة ذبحوا شاة وأرسلوا إليه ليصحبهم وكانت ليلة شديدة البرد ، فجاءهم رسولهم وليس لديه ثياب تقيه البرد فبعث مع الرسول بهذين البيتين . (راجع : معاهد التنصيص للعباسي ٢ / ٢٠٢) .

إخواننا قـصدوا الـصبوح بـسحرة فـأتى رسـولهم إلـيَّ خـصوصا
قالوا اقترح شيئاً نجـد لـك طبخـه قلت اطبخوا لـي جبـة وقميـصا

وموضع المشاكلة في قوله : (اطبخوا لي جبةً وقميصا) حيث ذكر لفظ (اطبخوا) ومعناه : خيطوا ، والذي سوَّغ ذكر خياطة الجبة بلفظ الطبخ هو وقوعها فـي صـحبة طبخ الطعام تحقيقاً .

ومن أمثلة المشاكلة التقديرية لهذه الصورة قولـه ـ تعـالى ـ : ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [١] قال الزمخشري : " والمعنى : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماءٍ أصـفر يـسمونه (المعمودية) ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلـك قـال : الآن صار نصرانياً حقاً " [٢].

فقد عبر النظم القرآني عن الإيمان بالله وتطهير النفوس بلفظ (صبغة الله) علـى سبيل المشاكلة التقديرية ؛ لأن هذا اللفظ لم يذكر صراحةً قبل ذلك وإنما دلَّ عليه قرينة الحال كما ورد في سبب نزول الآية [٣].

الصورة الثانية : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ضده .

وتقع المشاكلة أيضاً في هذه الصورة تحقيقية وتقديرية .. فمن أمثلة التحقيقية مـا ورد أن رجلاً شهد عند شُرَيح فقال : (إنك لسبط الشهادة) فقال الرجل : (إنهـا لـم تُجعَّد عني) : فقال شريح : لله بلادك وقبل شهادته . فالذي سوَّغ تجعيد الـشهادة هـو مراعاة المشاكلة ، ولولا سبوطة الشهادة لامتنع تجعيدها [٤].

والمراد بقوله : (إنك لسبط الشهادة) أي : مستمر في حفظهـا وقبولهـا دائمـاً وأدائها في ساحة القضاء ، والمراد بقوله : (لم تُجعَّد عنِّي) : لم تقصر عن إدراكـي وحفظي ، فمتى أدركتني الشهادة حفظتها وتحملتها وأديتها فلا أكتمها .

---

(١) البقرة / ١٣٨ .
(٢) الكشاف ١ / ٣٣٥ .
(٣) راجع : بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ٤ / ٢١ . وسيأتي ـ إن شـاء الله ـ تحليـل المشاكلة في هذه الآية .
(٤) راجع : الإيضاح ص / ٣٢٧ .

والسبوط في الأصل : إطالة الشعر وامتداده .. والجعودة : قصر الشعر ، فقد ذكر قصر الشهادة بلفظ الجعودة لوقوعها في صحبة السبوطة المضادة للجعودة [١].

ومن أمثلة المشاكلة التقديرية لهذه الصورة قول أحد الشعراء لمعن بن زائدة :

أتنكـــر إذ لحافك جلد شـــاة وإذ نعلاك من جلـــد البعـــير

فقال معن : جل ربي وعز ... فقال الشاعر :

فقد جلَّ الذي أعطاك ملكاً وعلمك الجلوس على السرير

فقال معن : جلَّ ربي وعز ... فقال الشاعر :

فجد لي يا ابن ناقصةٍ بمالٍ فإني قـد عزمت على المســـير

فقوله : (يا ابن ناقصة) مشاكلة تقديرية ، والذي سوغ استعمال هذا اللفـظ هـو مراعاة اسم (معن بن زائدة) لأن الحوار معه والخطاب له [٢].

الصورة الثالثة : ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة مماثلة أو مناسبة .

ومن أمثلة هذه الصورة ما ذكره صاحب مواهب الفتاح " أن رجلاً قال لوهـب : أليس قد ورد أنَّ (لا إله إلا الله) مفتاح الجنة ؟ فقال وهب : بلى ، ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بالأسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك ، فقد عبر عن (لا إله إلا الله) بالمفتاح ، وعبر عن الشرائع والأعمال المعتبرة في الإسلام بالأسـنان مـشاكلة بالمناسب ؛ إذ الأسنان تناسب المفتاح " [٣].

المشاكلة بين الحقيقة والمجاز :

إن المتأمل في التراث البلاغي وفي آراء العلماء الأوائل يلحظ أنهم قد أطلقوا لفظ (الاستعارة) و (المجاز المرسل) على كثير من شواهد المشاكلة ... ومـن هـؤلاء العلماء (الرماني) حيث قال في قوله ـ تعـالى ـ : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [٤]" أي جازوه بما يستحق طريق العدل إلا أنه استعير للثـاني لفظ الاعتداء " .

---

(١) راجع : مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٤ / ٣١٠ ضمن شروح التخليص .

(٢) راجع : دراسات في علم البديع للدكتور / أحمد محمد علي ص / ١٢١ .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٤ / ٣١٠ .

(٤) البقرة / ١٩٤ .

وقال في قولـــه ـــ تعـــالى ـــ : ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ [١]" أي : جازهم على مكرهم فاستعير للجزاء على المكر اسم المكر " [٢].

ومن هؤلاء العلماء أيضاً (الشريف الرضي) ، ففي قولـــه ـــ تعـــالى ـــ : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[٣] قال : " وهاتان استعارتان ، فـــالأولى منهمـــا إطلاق صفة الاستهزاء عليه سبحانه ، والمراد أنه يجازيهم على اســـتهزائهم بإرصـــاد العقوبه لهم ، فسمي الجزاء على الاستهزاء باسمه إذا كان واقعاً في مقابلته " [٤].

ويبرز إطلاق لفظ (الاستعارة) و(المجاز المرسل) على شواهد المشاكلة عند كثيـــر من فحول المفسرين، ومنهم (ابن عطية)، ففي قوله ـــ تعالى ـــ: ﴿ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ﴾ [٥] يقول ابن عطية : " وصبغة الله: شريعته وسنته وفطرته؛ وذلك أن النصارى لهم ماءٌ يصبغون فيه أولادهم .... وقيل : سمي الدين (صبغة) استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره"[٦].

وقد شغل المتأخرون بتحقيق القول في هذه المسألة ، وبيان موضع المُشاكلة مـــن الحقيقة والمجاز ، قال عبد الحكيم السيالكوتي نقلاً عن سعد الدين التفتازاني في شـــرحه للمفتاح: " قوي إشكال المشاكلة بأنها ليست بحقيقة وهو ظاهر ، ولا مجاز لعدم العلاقة، ولا محيص سوى التزام قسم ثالث في الاستعمال الصحيح ، أو القـــول بـــأن الوقـــوع المذكور ـــ يعني الوقوع في الصحبة ـــ نوع من العلاقة فيكون مجازاً " [٧].

ومع أن التفتازاني عرض أقوال العلماء في هذه المسألة ، إلا أنه يرتضي أن تكون المشاكلة من قبيل المجاز، وحجته في ذلك أن الوقوع في الصحبة يعد نوعاً من العلاقة.

---

(١) آل عمران / ٥٤ .

(٢) إعجاز القرآن للرماني ص / ٩٩ (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .

(٣) البقرة / ١٥ .

(٤) تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي ص / ١١٣ ، ١١٤ .

(٥) البقرة / ١٣٨ .

(٦) المحرر الوجيز لابن عطية ١ / ٣٧٠ .

(٧) حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول ص / ٥٤٣ .

وقد ردَّ عبد الحكيم السيالكوتي على رأي التفتازاني من وجهين : —

الأول : أن جعل ذلك الوقوع علاقة ينافي عده من المحسنات البديعية ، فكان عليهم أن يذكروه في فن البيان .

الثاني: أنهم قالوا: لابد في المجاز من اللزوم ولو تأويلاً، وهو ليس بهذه المثابة، فالمتعين هو الأول [١].

والذي أميل إليه في تحقيق هذه المسألة ، هو ما ذهب إليه ابن يعقوب المغربي من أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز ، فهي تجامع الاستعارة وليست نفسها وتجامع المجاز المرسل وليست نفسه .. ومجامعة المشاكلة لكل من الاستعارة والمجاز المرسل من جهة أنَّ في كل (ذكراً للشيء بلفظ غيره) . أما الذي تمتاز به المشاكلة عنهما فهو أنَّ علاقتها هي الوقوع في الصحبة تحقيقاً أو تقديراً .

كما أن تعريف المشاكلة يخرج الحقيقة أيضاً ؛ لأنها ذكر الشيء بلفظه ، والمشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره ، ومن هنا كانت المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز ، وهذا لا يمنع مجامعتها لأي من هذه الأقسام الثلاثة .. ولعلَّ من مجامعتها الحقيقةُ أن يقول قائل لآخر : (أسقيك ماء ؟) فيرد المخاطب : (بل اسقني طعاماً) فيعبر عن الإطعام بلفظ السقي لوقوعه في صحبة السقي [٢].

قال ابن يعقوب : " والتحقيق أن المشاكلة من حيث إنها مشاكلة ليست حقيقة ولا مجازاً : لأنها مجرد ذكر المصاحب بلفظ غيره لاصطحابهما ، ولو كان نحو هذا القدر يكفي في التجوز لصح التجوز في نحو قولنا : (جاء زيد وعمرو) بأن يقال : (جاء زيد وزيد) مراداً به عمرو ، لوقوعه في صحبة الغير ولا يصح .. بل المشاكلة أن يعدل عن لفظ المعنى إلى غيره في أماكن يستطرف فيها ذلك ، ولهذا قيل إنها يجوز أن يكون لفظها مجازاً وأن لا يكون كذلك فتجامعه وليست نفسه " [٣].

---

(١) المرجع نفسه ص / ٥٤٣ .

(٢) راجع : نظرات في علم البديع ، للدكتور / عبد المنعم سيد عبد السلام الأشقر ، ص / ١٩٠ .

(٣) مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي ٤ / ٣١٠ ، وراجع : البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي وكفاية الراضي للدكتور / فريد النكلاوي ٢ / ٤٩٣ وما بعدها .

القيمة البلاغية للمشاكلة :

لا يخفى أن بلاغة المشاكلة تكمن في جمال العبارة وسمو البلاغة ، فالناظر يتوهم أن المعنى الثاني هو عين الأول، فإذا أدام النظر وحقق الفكر علم أنه غيره، فيكون ذلك سبباً لاستقراره في الذهن، ورسوخه في الفهم، وهذا أدعى للثبوت وعدم التفلت [١].

وهذا يجرنا إلى القول بأن المشاكلة تجامع الجناس والطباق والمجاز المرسل والاستعارة ، وغيرها من الفنون البلاغية ، ولا غرابة في ذلك فالنكات البلاغية تتزاحم وتتعاضد لكنها لا تتعارض ، وكذلك فإن الفنون البلاغية تتآزر وتتعاون داخل السياق الواحد لخدمة الغرض والمعنى .

قال صاحب البغية : " وإنما عدت المشاكلة من المحسنات البديعية ؛ لأنها تنقل المعنى إلى لباس له غير مألوف فيحدث عجباً أو طرباً " [٢].

وسوف يتضح لنا بجلاءٍ بلاغة المشاكلة عند تحليلنا لشواهدها في القرآن الكريم ، وكيف وظفها النظم القرآني في حاق موضعها ، وكيف حققت الإفادة والإقناع في آنٍ واحد .

---

(١) راجع : البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم ، للدكتور / عبد الفتاح لاشين ص ٨١ .

(٢) بغية الإيضاح ٤ / ٢١ .

المبحث الثاني
من بلاغة المشاكلة في القرآن الكريم

الموضع الأول : قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ * اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١).

هذه الآيات تتحدث عن المنافقين وصنيعهم مع المؤمنين .. وموضع المشاكلة في قوله : (الله يستهزئ بهم) ، والمعنى : الله يجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين فقد عبر عن المجازاة أو المعاقبة بلفظ (الاستهزاء)؛ مشاكلة لقول المنافقين :(إنما نحن مستهزئون) فهي مشاكلة تحقيقية .

قال العلامة أبو السعود : "(الله يستهزئ بهم) أي : يجازيهم على استهزائهم سُمِّي جزاء الاستهزاء باسمه كما سُمِّي جزاء السيئة سيئة للمشاكلة في اللفظ " (٢).

وحمل الآية هنا على المشاكلة أبرّ رحماً بالسياق ، وأليق بذات الله ؛ لأن الاستهزاء معناه : السخرية والاستخفاف ، ولا يليق إسناد الاستهزاء إلى الله حقيقةً ؛ لأنه فعل قبيح ينزه الله تعالى عنه ، كما أن السخرية من باب العيب والجهل ، ألا ترى إلى قوله ــ تعالى ــ : ﴿ قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾(٣). (٤).

وآثر النظم القرآني أسلوب المشاكلة بلفظ (الاستهزاء) دون المجازاة أو المعاقبة للتأكيد على أن الجزاء من جنس العمل .

وقد حمل بعض العلماء استهزاء الله بالمنافقين على الحقيقة وإن لم يكن من أسمائه المستهزئ ، لأن معناه يحتقرهم على وجه شأنه أن يُتعجب منه ، وهذا المعنى غير مستحيل على الله فيصح إسناده إليه ــ تعالى ــ على وجه الحقيقة .

---

(١) البقرة / ١٤ ، ١٥ .

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ١ / ٤٧ .

(٣) البقرة / ٦٧ .

(٤) راجع : الكشاف ١ / ١٨٤ ، ١٨٥ .

قال الزمخشري : " معنى استهزائه بهم : إنزال الهوان والحقارة بهم ؛ لأن المستهزئ غرضه الذي يرميه هو طلب الخفة والزراية ممن يهزأ به ، وإدخال الهوان والحقارة عليه ... وقد كثر التهكم في كلام الله تعالى بالكفرة ، والمراد به تحقير شأنهم وازدراء أمرهم ، والدلالة على أن مذاهبهم حقيقة بأن يسخر منها الساخرون ويضحك الضاحكون " (١).

وقد حمل الشهاب الخفاجي قوله ــ تعالى ــ : (الله يستهزئ بهم) على المجاز ، بناءً على أن الاستهزاء لا يليق به تعالى ولا يجري على حقيقته ، ولا بد من تأويله واقترانه بمسوغ له ، كأن يقال أطلق على مجازاة الله لهم لما بين الفعل وجزائه من الملابسة القوية ، ولما في الأول من السببية مع وجود المشاكلة المحسنة ، أو على سبيل الاستعارة التبعية بعلاقة المشابهة في المقدار ، وقيل إنه مجاز مرسل بجعل جزاء الاستهزاء تابعاً له مترتباً عليه مناسباً له في القدر ، وقيل إنه كناية عن اختصاص ضرر الاستهزاء بهم .

وقد رجح الشهاب أن يكون قوله : (الله يستهزئ بهم) استعارة مكنية وتخييلية ، وذلك بجعل الله ــ جل جلاله ــ كالمستهزئ بهم ، وإثبات الاستهزاء له تخييلاً (٢).

ولا تعارض بين هذه الوجوه لأن الألوان البلاغية تتآزر لخدمة المعنى ، وتتشابك للنهوض بالغرض .

ومن جمال النظم في هذه المشاكلة ، أنه عبر في جانب المنافقين بالجملة الاسمية (إنما نحن مستهزئون) ؛ لإفادة كلامهم معنى دوام صدور الاستهزاء منهم وثباته بحيث لا يحولون عنه ، وعبر في قول الله بالفعل المضارع (يستهزئ بهم) ؛ لإفادة التجدد والاستمرار ، أي تجدد إملاء الله لهم زماناً إلى أن يأخذهم بالعذاب ليعلم المسلمون أن ما عليه أهل النفاق من النعمة إنما هو إملاءٌ وإن طال ، كما قال ــ تعالى ــ ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ﴾(٣). (٤)

---

(١) الكشاف ١ / ١٨٥ وراجع : روح المعاني للألوسي ١ / ١٥٨ .

(٢) حاشية الشهاب الخفاجي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي١/٥٣٧، ٥٣٨.

(٣) آل عمران : ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٤) راجع : التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ١ / ٢٩٤ .

وأسند سبحانه الاستهزاء إليه مُصدّراً الجملة بذكره فقال : (الله يستهزئ بهم) للتنبيه على أن الاستهزاء بالمنافقين هو الاستهزاء الأبلغ الذي لا اعتداد معه باستهزائهم لصدوره عمن يضمحل علمهم وقدرتهم في جانب علمه وقدرته ، وأنه تعالى كفى عباده المؤمنين وانتقم لهم وما أحوجهم إلى معارضة المنافقين تعظيماً لشأنهم لأنهم ما استهزئ بهم إلا فيه ولا أحد أغير من الله سبحانه [١].

الموضع الثاني : قال ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [٢].

موضع المشاكلة في قوله : (إن الله لا يستحي) .. والحياء : تغير وانكسار يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويذم ، ومحله الوجه ، ومنبعه من القلب ، واشتقاقه من الحياة ، وضده : القحة .. [٣] وقيل : الحياء انقباض النفس عن القبائح وهو مركبٌ من جبن وعفة [٤].

فالآية تشعر بصحة نسبة الحياء إلى الله تعالى؛ لأنه في العرف لا يُسلب الحياء إلا عمن هو شأنه، فكيف جاز وصف القديم سبحانه به ولا يجوز عليه التغير والخوف والذم؟[٥].

أجيب على ذلك بأن هذا من باب المشاكلة وهو الأليق والأنسب ، فقد ورد أن هذه العبارة وردت في كلام الكفرة ، فقالوا : أما يستحيي ربُّ محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ، فنزل قوله : (إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) [٦]، وعلى هذا تكون المشاكلة تقديرية .

وأرى أن حمل لفظ الحياء في هذه الآية على المشاكلة هو الأرجح ؛ لأنه لا يصح وصف الله تعالى بهذه الصفة .

---

(١) راجع : روح المعاني ١ / ١٥٩ .

(٢) البقرة / ٢٦ .

(٣) راجع : الكشاف ١ / ٢٣٦ والبحر المحيط لأبي حيان ١ / ١٩١ .

(٤) راجع : روح المعاني ١ / ٢٠٦ .

(٥) راجع : الكشاف ١ / ٢٣٦ وروح المعاني ١ / ٢٠٦ .

(٦) راجع : الكشاف ١ / ٢٣٧ وإرشاد العقل السليم ١ / ٧٢ وروح المعاني ١ / ٢٠٦ .

وقد وضح الزمخشري بلاغة المشاكلة في هذه الآية فقال : " فجاءت هذه الآية على سبيل المقابلة ، وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع وطراز عجيب ، منه قول أبي تمام :

مَنْ مبْلغٌ يَعْرُبَ كلَّها ... أنّي بنيتُ الجارَ قبل المنزلِ

وشهد رجل عند شريح ، فقال : إنك لسبط الشهادة ، فقال الرجل : إنها لم تجعَّد عني فقال : لله بلادك ، وقبل شهادته ، فالذي سوغ بناء الجار وتجعيد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوطة الشهادة لا متنع تجعيدها ، ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها ، لا تكاد تستغرب منها فناً إلا عثرت فيه على أقوم مناهجه وأسدّ مدارجه " (١).

وقد حمل الشهاب الخفاجي قوله : (إن الله لا يستحيي ...) على الاستعارة التمثيلية فقال : " قوله : وإنما عدل به عن الترك إلخ ... أي عدل عن الترك الدال على المراد بالصراحة والمطابقة إلى ما ذكر من الاستحياء المحتاج للتوجيه ؛ لأنه استعارة وتمثيل، وهي تدل علي إثبات الشيء ببينة وتقرير مع ما فيه من المبالغة " (٢)

وقد ذكر الزمخشري أن معنى قوله : (إن الله لا يستحيي) أي : لا يترك ضرب المثل بالبعوضة ترك من يستحيي أن يتمثل بها لحقارتها .. والتمثيل إنما يصار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وإدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظيماً كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك فليس العظم والحقارة في المضروب به المثل إذاً إلا أمراً تستدعيه حال المتمثل له وتستجره إلى نفسها، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية (٣).

الموضع الثالث : ـ قال ـ تعالى ـ : ﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ • فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ

(١) الكشاف ١ / ٢٣٧ ، ٢٣٨ .

(٢) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢ / ١٢٩ ، ١٣٠ وراجع : البيان عند الشهاب الخفاجي د / فريد النكلاوي ٢ / ٥٠٠ وما بعدها .

(٣) السابق ١ / ٢٣٧ .

فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ [١].

موضع المشاكلة في قوله : (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) حيث عبر النظم القرآني عن الإيمان بالله وتطهير النفوس بلفظ (الصبغة) على سبيل المشاكلة التقديرية قال الزمخشري : " والمعنى : تطهير الله ؛ لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه (المعمودية) ويقولون : هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانياً حقاً ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : (قولوا آمنا بالله) وصبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نُصبغ صبغتكم ، وإنما جيء بلفظ الصبغة على طريق المشاكلة " [٢].

وقد ذكر المفسرون اعرابات متعددة للفظ (صبغة) ، فقيل : هو منصوب على الإغراء أي : الزموا صبغة الله ، وقيل : هو بدل من (ملة إبراهيم) ، وقد رد الزمخشري هذين الوجهين لما فيهما من فك النظم وإخراج الكلام عن التئامه واتساقه .

والراجح أن (صبغة الله) منصوب انتصاب المصدر المؤكد عن قوله : (قولوا آمنا) ، وعلى هذا الوجه يكون التعبير بلفظ (صبغة) مشاكلة تقديرية وهو المناسب للسياق والنظم [٣].

وإضافة الصبغة إلى الله ــ ﷻ ــ (صبغة الله) ؛ للتشريف والإيذان بأنها عطية منه سبحانه لا يستقل العبد بتحصيلها [٤].

والاستفهام في قوله : (ومن أحسن من الله صبغة) للإنكار ، وهذه الجملة معترضة ومقررة لما في صبغة الله تعالى من التبجح والابتهاج [٥].

---

[١] البقرة / ١٣٦ ــ ١٣٨ .

[٢] الكشاف ١ / ٣٣٥ وأنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ١ / ٤١٢ وحاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢ / ٤٠٦ .

[٣] راجع : الكشاف ١ / ٣٣٦ وروح المعاني ١ / ٣٩٧ والتحرير والتنوير ١ / ٧٤٢ .

[٤] راجع : إرشاد العقل السليم ١ / ١٦٨ .

[٥] راجع : روح المعاني ١ / ٣٩٨ .

وقدم الجار (له) في قوله: (ونحن له عابدون)؛ لإفادة اختصاص العبادة لله تعالى، أما تقديم المسند إليه (نحن) ؛ لإفادة قصر ذلك الاختصاص عليهم وعدم تجاوزه إلى أهل الكتاب، فيكون تعريضاً لهم بالشرك أو عدم الانقياد له تعالى باتباع ملة إبراهيم[١].

الموضع الرابع : قال تعالى : ﴿ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢].

في هذه الآية يبين الله تعالى حكم القتال في الأشهر الحرم ، وهي : رجب ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، فالذي ينتهك حرمة الشهر الحرام جزاؤه أن يُحْرم الضمانات التي كفلها له الشهر الحرام ، فقد جعل الله الأشهر الحرم واحة أمن تصان فيها الدماء والأموال والحرمات ، ولكن من أراد العدوان على المسلمين في الأشهر الحرم فقد أجاز الله للمسلمين الرد عليه بمثل عدوانه بدون تجاوز ولا مغالاة في المجازاة والقصاص ، إذ أمرهم الله بالتقوى وذكرَّهم بأنه مع المتقين .

وموضع المشاكلة في قوله : (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) والمعنى : من اعتدى عليكم في الأشهر الحرم ، فجازوه وعاقبوه بمثل ما اعتدى عليكم ، فقد ذكر المجازاة أو المعاقبة بالمثل بلفظ (الاعتداء) مشاكلة لما قبله ، فهي مشاكلة تحقيقية [٣].

وتكمن بلاغة المشاكلة في التعبير بلفظ (فاعتدوا) دون جازوه أو عاقبوه للدلالة على أن الجزاء من جنس العمل ، حتى يرتدع البادئ بالاعتداء ، ومعلوم أن الاعتداء من المشركين ظلم ومجاوزة للحد ، أما الاعتداء الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص وجزاء دون تجاوز أو مغالاة .. كما أن في التعبير بلفظ (فاعتدوا) تقوية لعزائم المسلمين ، وتوطيناً لهممهم ، أي افعلوا ما أمركم الله به في دفع العدوان .

وقوله : (بمثل ما اعتدى عليكم) تأكيد على المماثلة في المقدار وفي الأحوال ككونه في الشهر الحرام أو البلد الحرام [٤].

---

(١) المرجع السابق .

(٢) البقرة / ١٩٤ .

(٣) راجع : الكشاف ١ / ٣٩٧ وفتح القدير للشوكاني ص ١٤٩ والتحرير والتنوير ٢ / ٢١١ .

(٤) راجع : التحرير والتنوير ٢ / ٢١١ .

وإنما أمر بالاتقاء في جانب الاعتداء (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) ؛ لأن شأن المنتقم أن يكون عن غضب فهو مظنة الإفراط .

وقد جوز الشهاب الخفاجي عدة وجوه في قوله ــ تعالى ــ (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه ...) :

الأول : أنه كناية عن النهي عن العدوان على المنتهين ، أي العدوان مختص بالظالمين ، والمنتهون ليسوا بظالمين فلا تعتدوا عليهم .

والثاني : أنه مشاكلة بتسمية جزاء العدوان عدواناً ، أي : لا تظلموا إلا الظالمين ، ففي الوجهين القصد إلى النهي مجازاً أو كناية ، لكن النهي في الأول عن قتال المنتهين لكونه ظلماً حقيقة ، وفي الثاني عن مجازاة غير الظالمين بما هو في صورة الظلم بالنسبة إلى الظالمين .

والثالث : أن المذكور سبب للجزاء ، أي : إن انتهوا فلا تتعرضوا لهم لئلا تكونوا ظالمين فيسلط الله عليكم من يعدو عليكم ؛ لأن العدوان لا يكون إلا على الظالمين [١].

الموضع الخامس : قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [٢].

هذه الآية تبين حكم المرأة التي سُمِّي لها مهر وطُلِّقت قبل الدخول بها ، فيجب في هذه الحالة أن تُعطى نصف المهر المتفق عليه ، إلا أن تعفوَ وتسامح الزوج فتترك نصف المهر المستحق لها ، أو يترك الزوج تكرماً منه المهر كلَّه للزوجة المطلقة ، والعفو من جانب الرجل أو المرأة في هذا الموقف أقرب إلى خشية الله وطاعته وترغيب في المعروف ودعوة إلى التسامح في الحقوق .

وموضع المشاكلة في قوله : (إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) وتوضيح ذلك : أن تسمية إسقاط المرأة لحقها في نصف المهر المتفق عليه (عفواً)

---

[١] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٢ / ٤٨١ ، ٤٨٢ .

[٢] البقرة / ٢٣٧ .

ظاهر ولا خلاف فيه ؛ لأن نصف المهر حقٌ وجب على المطلق للمطلقة قبل البناء بما استخف بها فهو حق وجب لغرم ضُرٍّ [١] وهذا معنى قوله : (إلا أن يعفون) .

أما قوله : (أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح) فالمراد به الزوج المالك لعقد النكاح وحله ، ومعنى عفوه : أن يسوق إلى الزوجة المطلقة المهر كاملاً ويترك تكرماً منه ما يعود إليه من نصف المهر .

فقد سمى الزيادة على الحق (عفواً) من باب المشاكلة ، فهي مشاكلة تحقيقية [٢].

والقيمة البلاغية في التعبير بلفظ (العفو) في جانب الزوج ، دون لفظ الترك أو الزيادة على الحق ؛ لأن الغرض هو الترغيب في المعروف والتسامح في الحقوق ، وهذا يناسبه المشاكلة بلفظ (العفو) .

ولعل في وصف الزوج بقوله : (الذي بيده عقدة النكاح) حث على العفو وترغيب في التسامح ، وهزٌ للزوج في ترك المهر كله للزوجة المطلقة ، لا سيما وأن بيده عقد النكاح وحله .

الموضع السادس : قال ــ تعالى ــ : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٣].

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية أنها نزلت في نصارى نجران ، وذلك أنهم قالوا : إنما نعظم المسيح ونعبده حباً لله ــ تعالى ــ وتعظيماً له ، فأنزل الله هذه الآية رداً عليهم [٤].

قال ابن كثير : " هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأحواله " [٥].

---

(١) راجع : التحرير والتنوير ٢ / ٤٦٣ .

(٢) راجع : الكشاف ١ / ٤٦٤ وروح المعاني ٢ / ١٥٤ .

(٣) آل عمران / ٣١ .

(٤) راجع : روح المعاني ٣ / ١٣٠ .

(٥) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١ / ٤٩٤ ، ٤٩٥ .

والمحبة هي : ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه بحيث يحملها على ما يقربها إليه [١].

فمحبة العباد لله : مجاز عن إرادة نفوسهم اختصاصه بالعبادة دون غيره ورغبتهم فيها .. أما محبة الله عباده : أن يرضى عنهم ويحمد فعلهم ويتجاوز عما فرط منهم ويقربهم من جناب عزه ويبوئهم في جوار قدسه [٢].

فقد عبر عن رضا الله على عباده وحمده لأفعالهم بلفظ (المحبة) على طريق المشاكلة ، فهي مشاكلة تحقيقية .

وتبرز بلاغة المشاكلة في التعبير بلفظ (يحببكم) دون يرضى عنكم ؛ لأن محبة الله لعبده هي منتهى الأماني وغاية الآمال .. وقد قال بعض الحكماء العلماء : ليس الشأن أن تُحِب إنما الشأن أن تُحَبَّ [٣].

وجوز الشهاب الخفاجي أن تكون الآية من قبيل المجاز المرسل أو الاستعارة ، فقال : " ذهب عامة المتكلمين إلى أن المحبة نوع من الإرادة ، وهي لا تتعلق حقيقة إلا بالمعاني والمنافع ، فيستحيل تعلقها بذاته ــ تعالى ــ وصفاته ، فإذا قيل إن العبد يحب الله فمعناه يحب طاعته وخدمته ، أو ثوابه وإحسانه ، وأما محبة الله العباد فعبارة عن إرادة إيصال الخيرات والمنافع في الدين والدنيا إليهم ، وهما مجاز من باب إطلاق الملزوم على اللازم ، أو استعارة تبعية ، شبه إرادة العباد اختصاصه ــ تعالى ــ بالعبادة ورغبتهم فيها بميل قلب المحب إلى المحبوب ميلاً لا يلتفت إلا إليه " [٤].

الموضع السابع : قال ــ تعالى ــ : ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ * رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ * وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[٥].

---

[١] راجع : أنوار التنزيل للبيضاوي ٢ / ٢٧ .

[٢] راجع : الكشاف ١ / ٥٤٦ وأنوار التنزيل ٢ / ٢٨ .

[٣] راجع : تفسير ابن كثير ١ / ٤٩٥ .

[٤] حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣ / ٣٤ ، ٣٥ .

[٥] آل عمران / ٥٢ ، ٥٤ . ونظير هذه الآية في المشاكلة قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ الأنفال / ٣٠ .. وقوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ . يونس / ٢١ .

موضع المشاكلة في قوله : (ومكروا ومكر الله) وأصل المكر : الشر ، ومنه مكر الليل إذا أظلم ، وفسره البعض بصرف الغير عما يقصده بحيلة ، وقيل: هو خداع الشخص لإيقاعه في الضرر، فالمكر من المخلوقين هو الخبث والخديعة والحيلة [١].

ولا يجوز بحالٍ إطلاق المكر على الله تعالى بهذا المعنى إلا على سبيل المشاكلة ؛ لأنه تعالى منزه عن معنى المكر وغير محتاجٍ إلى حيلة [٢].

ومعنى الآية : ومكر كفار بني إسرائيل الذين أحسَّ عيسى منهم الكفر ، ومكرهم أنهم وكلوا به من يقتله غيلة . (ومكر الله) أي : جازاهم على مكرهم، ومكرُ الله أن رفع عيسى إلى السماء وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل [٣].

فقد سمى جزاء المكر (مكراً) مشاكلة لمكر الكفار من بني إسرائيل ، فهي مشاكلة تحقيقية .. والسر في التعبير بلفظ (ومكر الله) دون : جازاهم الله ؛ هو الإشارة إلى أن الجزاء من جنس عملهم ، وأن مكر الكفار من بني إسرائيل كان وبالاً عليهم .

ومعنى قوله : (والله خير الماكرين) : أي أقواهم مكراً وأقدرهم على العقاب من حيث لا يُشعر المعاقب .. وعبر بالاسم الظاهر (الله) في موضع الإضمار ؛ لتربية المهابة في قلوب الكفار [٤].

الموضع الثامن : قال ـ تعالى ـ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [٥].

تبين هذه الآية قبيح صفات المنافقين، فهم يخادعون الله بما يظهرون من الإيمان ويبطنون من الكفر ظناً منهم أن خداعهم يخفى على الله، والحال أن الله خادعهم ومجازيهم على خداعهم في الدنيا والآخرة ... ومن صفاتهم أنهم إذا قاموا لأداء الصلاة قاموا إليها في فتورٍ يقصدون بصلاتهم الرياء والسمعة ولا يذكرون الله تعالى إلا ذكراً قليلاً.

---

[١] راجع : روح المعاني ٣ / ١٧٨ .

[٢] المرجع السابق .

[٣] راجع : الكشاف ١ / ٥٦٢ .

[٤] راجع : إرشاد العقل السليم ٢ / ٤٣ .

[٥] النساء / ١٤٢ .

وموضع المشاكلة في قوله : (يخادعون الله وهو خادعهم) والمعنى : إن هؤلاء المنافقين يخادعون الله وهو مجازيهم ومعاقبهم على خداعهم ، فقد عبر عن الجزاء أو المعاقبة بلفظ (المخادعة) مشاكلة لمخادعة المنافقين ، فهي مشاكلة تحقيقية .

ومعنى قوله : (إن المنافقين يخادعون الله) أي : يفعلون ما يفعل المخادع فيظهرون الإيمان ويضمرون الكفر ، وهذا جهل منهم وقلة عقل ، فالله تعالى لا يُخَادع لأنه عالم بالسرائر والضمائر [١].

ومعنى قوله : (وهو خادعهم) أي : مجازيهم ومعاقبهم على خداعهم ، وذلك بأن يستدرجهم في طغيانهم ويفعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع حيث تركهم الله في الدنيا معصومي الدماء والأموال وأعد لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار [٢].

وقيل : خداعه تعالى لهم يوم القيامة ، وذلك أن المنافقين يُعْطَوْنَ نوراً مثل المؤمنين على الصراط ، فيمضي المؤمنون بنورهم ، ويُطْفأ نور المنافقين ، فينادون المؤمنين : انظرونا نقتبس من نوركم ، فتلك خديعة الله إياهم [٣].

ولا يخفى أن حمل الآية هنا على المشاكلة فيه تنزيه لله ـ تبارك وتعالى ـ عن صفات العيب والنقص ، كما أن حمل الآية على المشاكلة فيه إشارة إلى تأكيد حقيقة وهي أن الجزاء بالجزاء ، وأن خداع المنافقين ليس إلا وبالاً عليهم حيث إن الله تعالى هو الذي سيتولى عقابهم في الدنيا والآخرة وهذا غاية الترهيب والتحذير من النفاق والمنافقين .

الموضع التاسع : قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ [٤].

---

[١] راجع : الكشاف ٢ / ١٦٦ وروح المعاني ٥ / ١٧٥ وتفسير ابن كثير ١ / ٧٨٠ .

[٢] راجع : الكشاف ٢ / ١٦٦ وإرشاد العقل السليم ٢ / ٢٤٦ وروح المعاني ٥ / ١٧٥ .

[٣] راجع : معالم التنزيل للبغوي ١ / ٤٩٢ وروح المعاني ٥ / ١٧٥ .

[٤] المائدة / ١١٦ .

هذه الآية مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ــ عليه السلام ــ يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمّه إلهين من دون الله ، وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد [١].

وموضع المشاكلة في قوله : (تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك) ، قال الزمخشري : " والمعنى : تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبيّنه ، فقيل : (في نفسك) لقوله : (في نفسي) [٢]، فهي مشاكلة تحقيقية .

والاستفهام في قوله : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله) للتقرير ، بمعنى حمل المخاطب على الإقرار بأنه ليس القائل حتى يرتب على جوابه توبيخ النصارى وتقريعهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد .

قال الشهاب الخفاجي : " والاستفهام في قوله : (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمّي إلهين من دون الله) ليس حقيقياً وليس لتوبيخ عيسى ــ ﷺ ــ بل لتوبيخ المتخذين ، ولما كان هذا القول وقع من رؤسائهم في الضلال كان مقرراً كالاتخاذ .... وقيل الاستفهام لاستنطاقه ليفتضحوا ، وهذا ليس غير التوبيخ كما توهم " [٣].

ثم يأتي الجواب الواجف الراجف الخاشع المنيب من عيسى ــ عليه السلام ــ يبدأه بالتسبيح والتنزيه (قال سبحانك) ويُسرع إلى التبرؤ المطلق من أن يكون من شأنه هذا القول أصلاً (ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق) ، ويستشهد بذات الله سبحانه على براءته مع التصاغر أمام الله وبيان خصائص عبوديته وخصائص ألوهية ربه: (إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب) [٤]. وهذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل كما ذكر ابن كثير [٥].

---

(١) راجع : تفسير ابن كثير ٢ / ١٦٧ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣١٥ .

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣ / ٥٨٣ .

(٤) راجع : في ظلال القرآن لسيد قطب ٧ / ١٠٠١ .

(٥) راجع : تفسير ابن كثير ٢ / ١٦٨ .

الموضع العاشر : قال ــ تعالى ــ : ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [١].

معنى الآية : قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين ، هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله تعالى هو الذي حرَّم ما حرمتم من الحرث والأنعام ، فإن شهدوا ــ كذباً وزورا ــ فلا تصدقهم ، ولا توافق الذين حكموا أهواءهم فكذبوا بآيات الله فيما ذهبوا إليه من تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله ؛ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يعملون لها ويشركون بالله فيعبدون معه غيره .

وموضع المشاكلة في قوله : (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) ، والمعنى : فإن شهدوا كذباً وزوراً فلا تصدقهم ولا تسلم لهم [٢]. فقد عبر عن التصديق والتسليم بلفظ الشهادة مشاكلة لما قبله ، فهي مشاكلة تحقيقية .

ولعل السر في إيثار المشاكلة والتعبير بلفظ (فلا تشهد) هو التأكيد على عدم التصديق للمشركين وعدم التسليم لهم فيما شهدوا به ؛ لأنه إذا سلَّم لهم فكأنه شهد معهم مثل شهادتهم ، وكان واحداً منهم ، ولأن التسليم موافقة لهم في الشهادة الباطلة والسكوت قد يشعر بالرضا[٣].

وقوله : (هَلُمَّ) اسم فعل أمر بمعنى أقبل إذا كان لازماً ، وبمعنى احضر وائت إذا كان متعدياً كما هنا ، والغرض من الأمر هنا هو التعجيز إذ لا يجدون شهداء يشهدون أن الله حرَّم ما نسبوا إليه تحريمه من شؤون دينهم [٤].

وإضافة الشهداء إلى ضمير المخاطبين في قوله : (شهداءكم) لزيادة تعجيزهم لأن شأن المحق أن يكون له شهداء يعلمهم فيحضرهم إذا دُعي إلى إحقاق حقه [٥].

---

[١] الأنعام / ١٥٠ .

[٢] راجع : الكشاف ٢ / ٤١٠ وروح المعاني ٨ / ٥٣ .

[٣] راجع : الكشاف ٢ / ٤١٠ وروح المعاني ٨ / ٥٣ .

[٤] راجع : التحرير والتنوير ٨ / ١٥٣ .

[٥] المرجع السابق .

والمقصود من إحضار الشهداء هو إلزامهم الحجة وإظهار انقطاع ضلالتهم وأنه لا متمسك لهم كمن يقلدهم . ولذلك قيد الشهداء بالإضافة ووصفوا بما يدل على أنهم شهداء معروفون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم [١].

وإن في قوله : (فإن شهدوا فلا تشهد معهم) للاستبعاد والفرض ، أي : إن فرض المستبعد فأحضروا شهداء يشهدون أن الله حرم هذا الذي زعموه ، فكذبهم وأعلم بأنهم شهود زور [٢].

ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله : (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به عن غيره فهو متبع للهوى لا غير ، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله تعالى [٣].

الموضع الحادي عشر : قال ــ تعالى ــ:﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[٤].

تحكي هذه الآيات توعد المستكبرين من قوم شعيب ــ عليه السلام ــ لنبيهم ومن آمن معه من المؤمنين بإخراجهم من قريتهم أو عودتهم إلى ملة الكفر ، وما كان من رد شعيب عليهم منكراً ومتعجباً من قولهم .. أنصير في ملتكم ونحن كارهون لها لفسادها ، ثم بالغ في قطع طمعهم من العود إلى ملتهم كما يطلبون فقال : إننا نكون كاذبين مفترين على الله إن عدنا إلى ملتكم بعد أن هدانا الله ، ولا ينبغي أن نفعل ذلك بمحض اختيارنا ورغبتنا إلا أن يشاء الله .

والتعبير بقولهم : (أو لتعودن في ملتنا) يقتضي أن شعيباً ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب ــ عليه السلام ــ فإن الأنبياء معصومون ــ حتى قبل النبوة ــ عن الكبائر فضلاً عن الشرك. فكيف نرد على ذلك؟.

---

(١) راجع : الكشاف ٢ / ٤١٠ ، ٤١١ وإرشاد العقل السليم ٣ / ٢٥٧ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٨ / ١٥٤ .

(٣) راجع : الكشاف ٢ / ٤١١ .

(٤) الأعراف / ٨٨ ، ٨٩ .

أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قالوا : (أو لتعودن في ملتنا) من باب التغليب لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيباً ، قالوا لهم: إما أن تخرجوا مع نبيكم الذي اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التي سبق أن كنتم فيها، فأدرجوا شعيباً معهم في الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا [١].

وأجيب بأن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان في ملتهم ؛ لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم[٢].

وأجيب أيضاً بأن قولهم : (أو لتعودن في ملتنا) بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى : (صار) فيعمل عمل كان ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، وكأنهم قالوا : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلنا[٣].

هذه بعض الأجوبة التي أجاب بها العلماء على قولهم : (أو لتعودن في ملتنا) ولا إشكال في ذلك ، لكن الإشكالية في قول شعيب : (قد افترينا على الله كذباً إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا) .. فكيف أجابهم ــ عليه السلام ــ بقوله : (إن عدنا في ملتكم) وقوله : (وما يكون لنا أن نعود فيها) وهذه الإجابة تقتضي أن شعيباً ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، والأنبياء ــ عليهم السلام ــ لا يجوز عليهم الكبائر فضلاً عن الشرك ؟ .

أجيب بأن قول شعيب : (إن عدنا في ملتكم) وقوله : (وما يكون لنا أن نعود فيها) من باب المشاكلة التحقيقية لقول المستكبرين من قومه: (أو لتعودن في ملتنا) [٤].

وأجاب الزمخشري بأن قول شعيب : (إن عدنا في ملتكم) من باب التغليب فهو يريد عود قومه إلا أنه نظم نفسه في جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك إجراءً لكلامه على حكم التغليب [٥].

---

[١] راجع : الكشاف ٤ / ٤٧٤ .

[٢] مفاتيح الغيب للرازي ١٤ / ١٧٧ والتحرير والتنوير ٩ / ٦ .

[٣] راجع : مفاتيح الغيب للرازي ١٤ / ١٧٧ .

[٤] راجع : التحرير والتنوير ٩ / ٧ .

[٥] راجع : الكشاف ٢ / ٤٧٤ .

لكن لا يخفى أن القول بالمشاكلة أقوى من التغليب ؛ لأن القول بالتغليب لا يدفع الشبهة المثارة من قول شعيب ــ عليه السلام ــ نهائياً ، أما المشاكلة فإنها تدفع الشبهة من أوسع الأبواب ، كيف لا وأسلوب المشاكلة لا يقدح في بلاغته وأصالته ودورانه في التراكيب العربية أيّ بليغ .

الموضع الثاني عشر : قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾[١] .

تحكي هذه الآية لوناً من ألوان ضلال المشركين وجحودهم مع رسول الله -ﷺ-، فلم تكن صلاتهم عند المسجد الحرام إلا صفيراً وتصفيقا ، ذكر الزمخشري : " أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة -الرجال والنساء- وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله -ﷺ- في صلاته يخلطون عليه"[٢].

وموضع المشاكلة في قوله : (وما كان صلاتهم) ، قال ابن عاشور : " ولا تعرف للمشركين صلاة ، فتسمية مكائهم وتصديتهم صلاة مشاكلة تقديرية ، لأنهم لما صدوا المسلمين عن الصلاة وقراءة القرآن في المسجد الحرام عند البيت كان من جملة طرائق صدهم إياهم تشغيبهم عليهم وسخريتهم بهم يحاكون قراءة المسلمين وصلاتهم بالمكاء والتصدية ، فلما فعلوا ذلك للاستسخار من الصلاة سمى فعلهم ذلك صلاة على طريقة المشاكلة التقديرية " [٣].

وأرى أن المشاكلة بتسمية المكاء والتصدية صلاة ، هو نفي الصلاة عن المشركين من أصلها ، والمعنى أن من كان المكاء والتصدية صلاته فلا صلاة له ، كما تقول العرب : ما لفلان عيب إلا السخاء ، يريد : من كان السخاء عيبه فلا عيب له [٤].

الموضع الثالث عشر : قال ــ تعالى ــ: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [٥].

---

(١) الأنفال / ٣٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٧٩ .

(٣) التحرير والتنوير ٩ / ٣٣٩ .

(٤) راجع : مفاتيح الغيب للرازي ١٥ / ١٦٠ .

(٥) التوبة / ٦٧ .

المنافقون والمنافقات صنف واحد، فهم يتشابهون في صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم حيث يأمرون بالكفر بالله ومعصية رسوله، وينهون عن الإيمان والطاعة، ويمسكون أيديهم عن النفقة في سبيل الله، نسوا الله فلا يذكرونه، فتركهم وحرمهم من توفيقه وهدايته.

وموضع المشاكلة في قوله : (نسوا الله فنسيهم) ، قال الشوكاني : " أي : تركوا ما أمرهم به فتركهم من رحمته وفضله ، لأن النسيان الحقيقي لا يصح إطلاقه على الله سبحانه ، وإنما أطلق عليه هنا من باب المشاكلة المعروفة في علم البيان " [١].

وإيثار المشاكلة هنا فيه إشارة إلى تأكيد حقيقة وهي أن الجزاء من جنس العمل وهذا غاية الترهيب والتهديد للمنافقين والمنافقات حيث إنهم نسوا ما أمرهم الله به من ذكر وطاعة فكان جزاؤهم أن تركهم الله وحرمهم من رحمته وفضله .

وجملة: (إن المنافقين هم الفاسقون) تذييل مؤكد لما قبله قصد به المبالغة في ذمهم، وقد صيغت جملة التذييل هنا مؤكدة بإن وأسلوب القصر؛ زيادة في التأكيد على ذمهم، أي هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير.

والإظهار في مقام الإضمار في قوله : (إن المنافقين هم الفاسقون) ؛ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم ، ولتكون الجملة التذييلية مستقلة حتى تكون كالمثل في شهرتها ، وهذا غاية الترهيب والتهديد لكل منافق [٢].

الموضع الرابع عشر: قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ * وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [٣].

(ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) يقال : همَّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه ، ومنه الهمَّام وهو الذي إذا همَّ بالشيء أمضاه [٤].

---

[١] فتح القدير للشوكاني ص ٦٨٨ .

[٢] راجع : التحرير والتنوير ١٠ / ٢٥٥ .

[٣] يوسف / ٢٣ ، ٢٤ .

[٤] راجع : لسان العرب (همم) ، والكشاف ٣ / ٢٦٧ ، ٢٦٨ .

والمعنى : لقد قصدت امرأة العزيز مخالطة يوسف ــ عليه السلام ــ قصداً جازماً بعد أن أغرته بشتى الوسائل فلم يستجب لها (وهم بها لولا أن رأى برهان ربه) أي : ومال إلى مخالطتها بمقتضى طبيعته البشرية وبمقتضى توفر كل الدواعي لهذا الميل ، ولكن مشاهدته للأدلة على شناعة المعصية وخوفه لمقام ربه وعون الله تعالى له على منازعة شهوته كل ذلك حال بينه وبين تنفيذ هذا الميل وصرفه عنه صرفاً كلياً [١].

والسؤال هنا : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هَمّ بالمعصية وهذا ينافي عصمة الأنبياء ؟ .

أجيب عن ذلك : بإن قوله (وهمّ بها) بمعنى : مال إلى مخالطتها بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب كالصائم الذي يرى الماء البارد في يوم شديد الحرارة فتميل نفسه إليه ، ولكن دينه يمنعه من الشرب منه فلا يؤاخذ بهذا الميل ، وإنما عبر عنه بالهم (وهم بها) لمجرد وقوعه في صحبة همها في الذكر بطريق المشاكلة التحقيقية ، لا لشبهة به [٢].

فهمُّ امرأة العزيز كان همًّا بالمعصية وكان مقروناً بالعزم والقصد بدليل تأكيده باللام وقد (ولقد همتْ به) وبدليل المراودة ، وتغليق الأبواب ، ودعوته إلى نفسها ، بقولها : (هيت لك) وهذا النوع من الهمِّ هو المذموم الذي يؤاخذ به صاحبه .

أمَّا هَمُّ يوسف ــ عليه السلام ــ فكان مجرد خاطرة قلب بمقتضى الطبيعة البشرية وشهوة الشباب من غير جزم وعزم ، وهذا اللون من الهم لا يدخل تحت التكليف ولا يخل بمقام النبوة ، ولا يؤاخذ به صاحبه ، فقد روى الشيخان عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ عن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال : (إن الله تجاوز لأمتي عما حدَّثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به) [٣].

والدليل على اختلاف الهمين ، أنه لو كان همه ــ عليه السلام ــ كهمها عن عزيمة وإصرار لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين (إنه من عبادنا المخلصين) [٤].

---

(١) راجع : الكشاف ٣ / ٢٦٨ وإرشاد العقل السليم ٤ / ٢٦٦ وروح المعاني ١٢ / ٢١٣ .

(٢) راجع : إرشاد العقل السليم ٤ / ٢٦٦ وروح المعاني ١٢ / ٢١٣ .

(٣) صحيح البخاري، كتاب الطلاق في الإغلاق والكره حديث رقم (٤٩٦٨) ٨٩٤/٢ صحيح مسلم، كتاب : الإيمان ، باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب حديث رقم (٣٢٨) ١١٦/١.

(٤) راجع : الكشاف ٣ / ٢٦٨ .

والسر في إيثار النظم القرآني أسلوبَ المشاكلة في قوله (وهمَّ بها) هو الإشارة إلى شدة الميل المترتب على شدة المقاومة والمنازعة نظراً لتوفر كل الدواعي المغرية للمخالطة من المراودة، وتغليق الأبواب، وقولها: (هيت لك) فهذه صورة حال تكاد تذهب بالعقول والعزائم، ويوسف -عليه السلام- يكسر ما به وينازع الشهوة. قال الزمخشري: "ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًّا لشدته لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع ؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظم الابتلاء وشدته " [١].

الموضع الخامس عشر : قال ــ تعالى ــ : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾ [٢].

سبب نزول هذه الآية : " أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد ... بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم ، ما تركوا أحداً غير ممثولٍ به إلا حنظله بن الراهب فوقف رسول الله ــ ﷺ ــ على عمه (حمزة) وقد مُثِّل به فقال : أما والذي أحلف به لئن أظفرني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك، فنزلت هذه الآية وكفَّر عن يمينه وكف عما أراده" [٣].

والمعنى : إن أردتم أيها المؤمنون معاقبة من اعتدى عليكم بالقتل ونحوه فعاقبوه بمثل ما فعله بكم ولا تزيدوا عليه ، وإن تركتم المعاقبة وصبرتم فإنه خير لكم في الدنيا بالنصر وفي الآخرة بالأجر العظيم .

وموضع المشاكلة في قوله: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) أي: بمثل ما فعل بكم، فقد عبر عن الفعل بالمعاقبة مشاكلة لقوله (عاقبتم) فهي مشاكلة تحقيقية [٤].

والسر البلاغي في إيثار النظم القرآني لأسلوب المشاكلة هنا هو الحث على مراعاة العدل في القصاص ، والمماثلة في الاستيفاء للحق ، وأن المعاقبة ينبغي أن تكون لأجل الحق لا لأجل أنفسكم .

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٦٨ .

(٢) النحل / ١٢٦ . ونظير هذه الآية في الدلالة على المماثلة والعدل في القصاص قوله ــ تعالى ــ : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴾ الشورى / ٤٠ أي : جزاء سيئة مجازاة أو معاقبة مثلها دون زيادة عليها ، ولا يخفى أن تسمية المجازة بالمثل (سيئة) فيه إشارة إلى أن العفو أولى والأخذ بالقصاص يعد سيئة بالنسبة إلى العفو ولذلك عقبه بقوله : (فمن عفا وأصلح).

(٣) الكشاف ٣ / ٤٨٦ ، ٤٨٧ .

(٤) راجع : إرشاد العقل السليم ٥ / ١٥٢ .

وعبر بـ (إن) دون (إذا) في قوله : (وإن عاقبتم فعاقبوا) ؛ " للحث على العفو تعريضاً لا تصريحاً ، وذلك لما في (إن) الشرطية من الدلالة على عدم الجزم بوقوع ما في حيزها ، فكأنه قيل : لا تعاقبوا وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به " [١].

وعبر بالاسم الظاهر في مقام الإضمار فقال : (ولئن صبرتم لهو خير للصابرين) مدحاً لهم وثناءً عليهم بالصبر ، وفيه إرشاد إلى أنه إن صبرتم فهو شيمتكم المعروفة فلا تتركوها إذاً في هذه القضية ، أو وصفاً لهم بصفة تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة ، ففيه ترغيب في الصبر لا يخفى [٢].

الموضع السادس عشر : قال ـ تعالى ـ : ﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ * قَالَ بَلْ أَلْقُوا ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ * وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ * فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ [٣] .

موضع المشاكلة في قوله : (فألقي السحرة سجداً) والمعنى : ولما عاين السحرة ما كان من أمر عصا موسى وشاهدوه بأعينهم وهم أصحاب الخبرة بفنون السحر وطرقه ؛ علموا علم اليقين أن الذي جاء به موسى ليس من قبيل السحر والحيل وأنه حق لا مرية فيه ولا يقدر عليه غير الله وحده ، وحينئذٍ خروا ساجدين لله ، وقالوا آمنا برب هارون وموسى .

فقد عبر النظم القرآني بقوله : (فألقي) دون : خرَّ أو سجد لوقوعه في صحبة الإلقاءات المذكورة فهي مشاكلة تحقيقية .

ولعل السر في إيثار أسلوب المشاكلة هنا هو الدلالة على عظم المعجزة التي عاينوها وصدق البرهان الذي شاهدوه بأعينهم فلم يتمالكوا أنفسهم حتى وقعوا وخروا على وجوههم ساجدين لله حتى لكأنهم أمسكهم إنسان وألقاهم ساجدين مثل ما تطرح

---

[١] روح المعاني ١٤ / ٢٥٨ .

[٢] راجع : الكشاف ٣ / ٤٨٩ ، ٤٩٠ وروح المعاني ١٤ / ٢٥٨ .

[٣] طه / الآيات من ٦٥ إلى ٧٠ .

العصا وتلقى على الأرض في سرعة وقوة ، والمراد أنهم أسرعوا إلى السجود اعترافاً وتصديقاً برب موسى الذي أيده بهذه المعجزة . قال الزمخشري : " سبحان الله ما أعجب أمرهم . قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود ، فما أعظم الفرق بين الإلقاءين . فقد روي أنهم لم يرفعوا رؤوسهم حتى رأوا الجنة والنار ورأوا ثواب أهلها . وروي : لما خروا سجداً أراهم الله في سجودهم منازلهم التي يصيرون إليها في الجنة " (١).

" والفاء في قوله : (فألقي السحرة) فصيحة ومعربة عن جمل غنية عن التصريح أي : فزال الخوف ، وألقى ما في يمينه وصارت حية ، وتلقفت حبالهم وعصيهم ، وعلموا أن ذلك معجزة ؛ فألقي السحرة على وجوههم سجداً لله تعالى تائبين مؤمنين به ـ ﷻ ـ وبرسالة موسى ـ عليه السلام ـ " (٢).

وأتى بفاء التعقيب وأسند الفعل للمجهول في قوله : (فألقي السحرة) للدلالة على السرعة في السجود من عظم المعجزة التي شاهدوها وإعلاناً باعترافهم أن موسى مرسل من عند الله (٣).

الموضع السابع عشر : قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٤).

هذه الآية مظهر من مظاهر قدرة الله التامة ، فالمخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها مخلوقة من ماء ، هذا الماء جعله الله ـ ﷻ ـ أساساً في تركيب أجسام المخلوقات ، ثم خالف بينها في الأشكال والألوان والاستعدادات فمن هذه المخلوقات من يمشي زحفاً على بطنه كالحيات والهوام والأسماك ، ومنهم من يمشي على رجلين كالإنسان والطيور ، ومنهم من يمشي على أربع كالبهائم ونحوها ، فسبحانه الله الذي لا يعجزه شيء .

---

(١) الكشاف ٤ / ٩٦ .

(٢) روح المعاني ١٦ / ٢٣٠ .

(٣) راجع : التحرير والتنوير ١٦ / ٢٦١ .

(٤) النور / ٤٥ .

وموضع المشاكلة في قوله : (فمنهم من يمشي على بطنه) أي : يزحف على بطنه ، فقد سمي الزحف على البطن مشياً ، مشاكلة للمشي على الرجلين والمشي على أربع فهي مشاكلة تحقيقية [١].

والنكتة في إيثار المشاكلة هنا هو المبالغة في إظهار القدرة الإلهية وأن هذا النوع من المخلوقات تزحف بلا آلة كشبه المشي وأقوى[٢].

وقدم المشي على البطن؛ لكونه أدل على القدرة، قال الزمخشري: فإن قلت: لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب؟ قلت: قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشي بغير آلة من أرجلٍ أو قوائم، ثم الماشي على رجلين، ثم الماشي على أربع"[٣].

وعبر عن الكل بأداة من يعقل وإن كانوا متفاوتين في التميز فقال: (من يمشي)؛ لأن السياق سياق تعظيم فُيغلَّب المميز على غيره [٤].

ونكر الماء في قوله : (من ماء) ؛ " لأن المعنى أنه خلق كل دابة من نوعٍ من الماء مختص بتلك الدابة ، أو خلقها من ماء مخصوص وهو النطفة ، ثم خالف بين المخلوقات من النطفة فمنها هوام ومنها بهائم ومنها ناس "[٥].

الموضع الثامن عشر : قال ـ تعالى ـ : ﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [٦].

تصور هذه الآية جانباً من أحوال من ينكرون البعث والجزاء عندما يلقى بهم في جهنم فيقال لهم تهكماً ذوقوا ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي والغم بسبب نسيانكم وإهمالكم وجحودكم ليوم القيامة وما فيه من حساب وجزاء ، وسيجازيكم ربكم جزاء نسيانكم بأن يتركم ويهملكم في جهنم تخلدون فيها ترك المنسيّ بالمرة .

---

(١) راجع : الكشاف ٤ / ٣١٣ وروح المعاني ١٨ / ١٩٣ .

(٢) راجع : روح المعاني ١٨ / ١٩٣ .

(٣) الكشاف ٤ / ٣١٢ .

(٤) راجع : الكشاف ٤ / ٣١٢ ونظم الدرر للبقاعي ١٣ / ٢٩٤ .

(٥) الكشاف ٤ / ٣١٢ .

(٦) السجدة / ١٤ .

وموضع المشاكلة في قوله : (إنا نسيناكم) أي : جازيناكم جزاء نسيانكم فقد عبر عن الجزاء بلفظ النسيان لوقوعه في صحبة قوله : (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا) فهي مشاكلة تحقيقية [١].

والنكتة في إيثار النظم القرآني أسلوب المشاكلة ، هي التأكيد أن جزاءهم من جنس عملهم ، قال الألوسي : " والقرينة على قصد المشاكلة فيه أنه قصد جزاؤهم من جنس عملهم ، فهو على حد قوله : (وجزاء سيئة سيئة مثلها) " [٢].

والنسيان الأول في قوله : (فذوقوا بما نسيتم) حقيقة ، قال الزمخشري : " والمراد بالنسيان : خلاف التذكر ، يعني : أن الانهماك في الشهوات أذهلكم وألهاكم عن تذكر العاقبة وسلط عليكم نسيانها " [٣].

أما النسيان في قوله: (إنا نسيناكم) فهو مشاكلة بمعنى: جازيناكم جزاء نسيانكم .. ونسيان الله لهم أن يتركهم في العذاب يخلدون ترك المنسيّ بالمرة . قال ابن عاشور: "عبر بالنسيان إظهاراً للعدل في الجزاء وأنه من جنس العمل المجازي عنه"[٤].

والفاء في قوله : (فذوقوا) ؛ لترتيب الأمر بالذوق على ما قبله من نسيان العاقبة وقلة الفكر فيها وترك الاستعداد لها [٥].

والغرض من الأمر في قوله : (فذوقوا) هو الإهانة والتهكم بهم ، وحذف مفعول قوله : (فذوقوا) لدلالة السياق عليه ، أي : فذوقوا ما أنتم فيه من نكس الرؤوس والخزي مما دعاكم أن تسألوا الرجوع إلى الدنيا [٦].

والباء في قوله: (بما نسيتم) للسببية، أي: بسبب نسيانكم لقاء هذا اليوم العظيم، وعدم التزود له بالكلية. والتعبير باسم الإشارة (هذا) للتهويل من يوم القيامة [٧].

---

(١) راجع : الكشاف ٥ / ٣٢ وروح المعاني ٢١ / ١٣٠ والتحرير والتنوير ٢١ / ٢٢٥ .

(٢) روح المعاني ٢١ / ١٣٠ .

(٣) الكشاف ٥ / ٣٢ .

(٤) التحرير والتنوير ٢١ / ٢٢٦ .

(٥) راجع : الكشاف ٥ / ٣٢ والبحر المحيط ٨ / ٤٣٦ .

(٦) راجع : التحرير والتنوير ٢١ / ٢٢٥ .

(٧) السابق ٢١ / ٢٢٦ .

وفي استئناف قوله: (إنا نسيناكم) وبناء الفعل على إن واسمها ؛ تشديد في الانتقام منهم [١]. والتعبير بصيغة الماضي في قوله : (نسيناكم) ؛ لإفادة تحقق الفعل حتى كأنه مضى ووقع [٢].

وكرر الأمر (ذوقوا) في قوله : (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) للتأكيد والتشديد والمبالغة في التقريع والتأنيب .

وصرح بالمفعول هنا في قوله : (وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون) للإشعار بأن سبب الذوق هنا ليس مجرد ما ذكر من النسيان بل له أسباب أخر من فنون الكفر والمعاصي التي كانوا مستمرين عليها في الدنيا [٣].

الموضع التاسع عشر : قال ـ تعالى ـ: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ [٤].

المغزى من هذه الآيات هو أن الجحود والبطر يؤديان إلى الخراب والدمار ، وإلى زوال النعم وتحويلها إلى نقم ، وهذا ما حدث مع قبيلة (سبأ) التي كانت تسكن اليمن فقد أنعم الله عليهم بحديقتين واسعتين تحفان ببلدتهم عن اليمين والشمال ، وقد أرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه على هذه النعم الجليلة ، لكنهم أعرضوا عن شكر الله ، وقابلوا الإنعام بالجحود والنكران ، فعاقبهم الله وأرسل عليهم السيل الجارف الذي خرَّب السد وأغرق البساتين ، وبدلهم بجنتيهم المثمرتين جنتين ذواتي (أُكُلٍ خَمطٍ) وهو الثمر المر الكريه الطعم ، (وأثلٍ) وهو شجر شبيه بالطَّرفاء لا ثمر له ، و (سدرٍ قليل) وهو شجر النَّبق كثير الشوك ، ولا يعاقب الله بهذا العقاب الشديد إلا الجحود الكثير الكفر بالله ونعمه .

---

(١) راجع : الكشاف ٥ / ٣٢ .

(٢) راجع : التحرير والتنوير ٢١ / ٢٢٦ .

(٣) راجع : روح المعاني ٢١ / ١٣٠ .

(٤) سبأ / ١٥ ، ١٦ ، ١٧ .

وموضع المشاكلة في قوله : (وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي ...) قال الزمخشري : " وتسمية البدل جنتين ؛ لأجل المشاكلة " [١] ثم بين المغزى من إيثار المشاكلة في هذا المقام وهو التهكم [٢].

فهذه المنابت المبدلة والتي لا فائدة من ثمارها ولا نفع من أشجارها سماها (جنتين) من قبيل المشاكلة التحقيقية؛ تهكماً بأهل سبأ لأنهم كفروا بنعم الله وأعرضوا عن شكره وعبادته.

الموضع العشرون : قال ـ تعالى ـ : ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ [٣].

في هذه الآية الكريمة إخبار عن حال السعداء الذين اتّقوا ربهم حين يُسَاقون إلى الجنة جماعاتٍ مرتبة حسب ترتب طبقاتهم في الفضل ، فإذا وصلوا الجنة تفتح لهم أبوابها ، ويستقبلهم حراسها بالتحية والسلام قائلين لهم : طابت أعمالكم وأقوالكم وطاب سعيكم وجزاؤكم فادخلوا الجنة خالدين فيها أبدا .

وموضع المشاكلة في قوله : (وسيق الذين اتقوا ربهم) والسوق : هو الدفع والحث على السير بعنفٍ وإزعاج ، وهو يشعر بالإهانة ، فلماذا عبر به في جانب السعداء من أهل الجنة ؟ .

أجيب على ذلك بأن النظم القرآني عبر بلفظ (وسيق) في جانب أهل الجنة مشاكلة لقوله: (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا.... الآية) فهي مشاكلة تحقيقية [٤].

والمراد بالسوق هنا هو الحث على المسير للإسراع إلى الإكرام ، بخلاف السوق في جانب الكفرة فإنه بقصد الإهانة وتعجيل العقاب لهم " فشتان ما بين السوقين هذا سوق إكرام ، وذاك سوق إهانة وانتقام ، وهذا لعمري من بدائع أنواع البديع ، وهو أن يأتي سبحانه بكلمة في حق الكفار فتدل على هوانهم بعقابهم ، ويأتي بتلك الكلمة بعينها

---

(١) الكشاف ٥ / ١١٦ وراجع : إرشاد العقل السليم ٧ / ١٢٨ .

(٢) الكشاف ٥ / ١١٦ .

(٣) الزمر / ٧٣ .

(٤) راجع : روح المعاني ٢٤ / ٣٣ والتحرير والتنوير ٢٤ / ٧١ .

وعلى هيئتها في حق الأبرار فتدل على إكرامهم بحسن ثوابهم ، فسبحان من أنزله معجز المباني ، متمكن المعاني ، عذب الموارد والمثاني " [١].

ومن جمال النظم في هذه الآية أنه حذف جواب (إذا) ؛ للإيذان بأن لهم من فنون الكرامة مالا تحيط به العبارة ، كأنه قيل : حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها كان من الأمر والخبر ما يقصر عنه البيان [٢].

والواو في قوله : (وفتحت أبوابها) هي واو الحال ، أي والحال أنها قد فتحت أبوابها إكراماً لهم قبل وصولهم إليها ، وهذا كما تفتح الخدم باب المنزل للمدعو للضيافة قبل قدومه وتقف منتظرة له وفي ذلك من الاحترام والإكرام ما فيه [٣] .

أما في جانب الكفار فقد عبر بقوله : (فتحت أبوابها) بدون الواو ؛ للدلالة على أن أبواب جهنم لا تفتح إلا عند دخول أهلها فيها فجأة تهويلاً ورعباً لهم[٤].

الموضع الحادي والعشرون : قال ــ تعالى ــ : ﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾ [٥].

المعنى : أن أهل مكة يعملون المكايد في إبطال أمر الله وإطفاء نور الحق ، والله مجازيهم على كيدهم بأن يمهلهم ويستدرجهم حتى يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

وموضع المشاكلة في قوله : (وأكيد كيدا) وأصل الكيد : العمل على إلحاق الضرر بالغير بطريقة خفية فهو نوع من المكر ... ولا يجوز بحال إطلاق الكيد على الله تعالى بهذا المعنى إلا على سبيل المشاكلة لأنه تعالى منزه عن معنى الكيد .

فقد سمي جزاء الكيد (كيداً) مشاكلة لكيد الكفار ، فهي مشاكلة تحقيقية[٦].

والكيد في جانب المشركين مستعمل في حقيقته ، أما الكيد في جانب الله فهو بمعنى الإمهال والإستدراج .... ولفظ (كيداً) في الموضعين مفعول مطلق مؤكد لعامله قصد منه مع التوكيد الدلالة على التعظيم .

---

(١) نظم الدرر ١٦ / ٥٦٧ .

(٢) راجع : الكشاف ٥ / ٣٢٥ وإرشاد العقل السليم ٧ / ٢٦٤ .

(٣) راجع : الكشاف ٥ / ٣٢٥ وروح المعاني ٢٤ / ٣٤ .

(٤) راجع : التحرير والتنوير ١٦ / ٦٩ .

(٥) الطارق / ١٥ ، ١٦ .

(٦) راجع : التحرير والتنوير ٣٠ / ٢٦٨ ونظم الدرر ٢١ / ٣٨٤ .

الخاتمة

نحمد الله ــ تعالى ــ ونشكره على ما وفق وأعان ، والصلاة والسلام على أفضل الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فقد ظهر لي من خلال هذا البحث عدة نتائج هذه أهمها : ــ

أولاً : أن الفراء هو أول من أدرك مضمون المشاكلة ، وإن كان لم يسمها باسم المشاكلة وهذا شيء لا يقدح في سبقه وأوليته ، لأن المصطلحات البلاغية لم تكن قد استقرت على صورتها الراهنة .

ثانياً : أن أول من أطلق مصطلح (المشاكلة) على هذا اللون البديعي هو (أبو علي الفارسي) المتوفى ٣٧٧ هـ .

ثالثاً : من خلال عرض آراء العلماء حول قضية (المشاكلة بين الحقيقة والمجاز) تبين لنا أن المشاكلة واسطة بين الحقيقة والمجاز ؛ لأن المشاكلة مجرد عدول عن لفظ المعنى إلى لفظٍ غيره في أماكن ومقامات يستطرف فيها ذلك .

رابعاً : تبين من خلال عرض شواهد المشاكلة في القرآن الكريم أن هذا الأسلوب البديعي حقق قيمة بلاغية تكمن في جمال العبارة وسمو البلاغة ، فالناظر يدرك من النظرة العجلى أن المعنى الثاني هو عين الأول ، فإذا أدام النظر وحقق الفكر علم أنه غيره ، فيكون ذلك أدعى لاستقراره في الذهن ورسوخه في الفهم فضلاً عن الأثر النفسي حيث إن المشاكلة تنقل المعنى إلى لباسٍ له غير مألوف ، فيحدث هذا في النفس عجباً وإمتاعا .

خامساً : ثبت للدراسة أن (المشاكلة التحقيقية) أكثر دورانا واستخدماً في النظم القرآني من (المشاكلة التقديرية) ولعل السر في ذلك راجع إلى كثرة الأسرار والأغراض البلاغية التي تنهض بحملها المشاكلة التحقيقية .

سادساً : تبين أن الأسلوب البلاغي الأمثل لحمل الآيات التي يوهم ظاهرها اتصاف الله ــ ﷻ ــ بصفات لا تليق بذاته هو أسلوب (المشاكلة) وهو أسلوب موجود في كلام العرب ، والقرآن الكريم نزل بلغة العرب .

ومن أمثلة هذه الآيات :

قوله ــ تعالى ــ : (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) .

قوله ــ تعالى ــ : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ....) .

قوله ــ تعالى ــ : (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) .

قوله ــ تعالى ــ : (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) .

قوله ــ تعالى ــ : (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم) .

قوله ــ تعالى ــ : (إنهم يكيدون كيداً وأكيد كيدا) .

فهذه الآيات وغيرها مما يوهم ظاهرها اتصاف الله ــ ﷻ ــ بصفاتٍ لا تليق بذاته جاءت على طريقة (المشاكلة) للتأكيد على غرض بلاغي وهو أن الجزاء من جنس العمل أو الجزاء بالجزاء كما يقولون .. وليس المراد اتصاف الله ــ تعالى ــ بهذه الصفات التي لا تليق به . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولا يخفى أن (المشاكلة) فن من الفنون التي وردت في كلام العرب ، والقرآن الكريم خاطب العرب بلغتهم وأساليبهم .

سابعاً : تبين من خلال تحليل شواهد المشاكلة في هذا البحث أن بعضها يجوز حمله على المجاز المرسل أو الاستعارة أو الكناية ... إلخ ، وهذا دليل دامغ على أن النكات البلاغية تتزاحم لكنها لا تتعارض بل تتآزر لخدمة المعنى المقصود ، كما أن هذا برهان قوي على غزارة عطاء القرآن الكريم ودقته .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د / صلاح أحمد رمضان حسين

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم . جلَّ من أنزله .

٢- أثر النحاة في البحث البلاغي ، د . عبد القادر حسين . طبعة : دار نهضة مصر بالفجالة – القاهرة عام ١٩٧٥م .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون تاريخ .

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام ناصر الدين البيضاوي ، تحقيق عبد القادر عرفات العشا حسونة ، طبعة دار الفكر – بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ = ١٩٩٦م .

٥- الإيضاح في علوم البلاغة للخطيب القزويني ، الناشر : دار إحياء العلوم – بيروت – الطبعة الرابعة ١٩٩٨ م .

٦- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي ، بعناية الشيخ عرفات العشا حسونة ، طبعة : دار الفكر – بيروت ، بدون تاريخ .

٧- البديع في ضوء أساليب القرآن الكريم ، د . عبد الفتاح لاشين . طبعة : دار الفكر العربي بالقاهرة عام ٢٠٠١م .

٨- بغية الإيضاح للشيخ عبد المتعال الصعيدي ، الناشر : مكتبة الآداب بالقاهرة عام ١٩٩٩م .

٩- البيان عند الشهاب الخفاجي في كتابه عناية القاضي وكفاية الراضي للدكتور / فريد النكلاوي ، مطبعة الأمانة بمصر ١٩٨٤م .

١٠- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ، طبعة : الدار التونسية للنشر ، بدون تاريخ .

١١- تفسير القرآن العظيم لابن كثير ، طبعة : دار الدليل الأثرية للنشر والتوزيع بالمملكة العربية السعودية ، الطبعة الثالثة ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

١٢- التفسير الكبير للفخر الرازي ، طبعة : دار إحياء التراث العربي – بيروت – طبعة ثالثة . بدون تاريخ .

١٣- حاشية الشهاب الخفاجي المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي ، طبعة : دار الكتب العلمية - بيروت ، ط : أولى ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م .

١٤- حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول ، طبع مطبعة الشيخ يحي بتركيا عام١٢٩٠هـ .

١٥- دراسات في علم البديع ، د . أحمد محمد علي . مطبعة الأمانة بالقاهرة ، طبعة أولى ١٩٨٦م .

١٦- روح المعاني للألوسي ، طبعة : دار الفكر - بيروت ، بدون تاريخ .

١٧- صحيح البخاري ، طبعة : دار ابن كثير - اليمامة - بيروت - ط (ثالثة) ١٩٨٧م ، تحقيق د . مصطفى ديب البغا .

١٨- صحيح مسلم ، طبعة : دار التراث العربي - بيروت - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

الطراز للعلوي ، طبعة : دار الكتب العلمية - بيروت - بدون تاريخ .

١٩- فتح القدير للشوكاني ، طبعة : مكتبة الرشد بالرياض ، طبعة ثانية عام ١٤٢٨ هـ، ٢٠٠٧م .

٢٠- في ظلال القرآن . لسيد قطب طبعة : دار الشروق ، الطبعة الثانية عشرة عام ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م .

٢١- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري ، تحقيق الأستاذين : على محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة : دار إحياء الكتب العربية بمصر عام ١٩٧١م .

٢٢- الكشاف لأبي القاسم الزمخشري، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، الناشر : مكتبة العبيكان ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م .

٢٣- لسان العرب لابن منظور، الناشر: دار صادر-بيروت- طبعة أولى، بدون تاريخ.

٢٤- المثل السائر لابن الأثير . تحقيق د . أحمد الحوفي ، د . بدوي طبانة ، طبعة : دار نهضة مصر الفجالة عام ١٩٦٠م .

٢٥- المحرر الوجيز لابن عطية، تحقيق المجلس العلمي بفاس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

٢٦- معالم التنزيل للبغوي ، تحقيق خالد عبد الرحمن العك وآخر ، طبعة : دار المعرفة - بيروت ، الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

٢٧- معاني القرآن للفراء ، تحقيق الأستاذين : محمد علي النجار ، أحمد يوسف نجاتي ، طبعة : عالم الكتب - بيروت ، الطبعة الثانية ١٩١٠ م.

٢٨- معاهد التنصيص للعباسي، تحقيق الشيخ محمد محي الدين، مطبعة السعادة عام ١٩٤٧م.

٢٩- مفتاح العلوم للسكاكي ، طبعة : المطبعة الميمنية بمصر عام ١٣١٨هـ .

٣٠- مواهب الفتاح لابن يعقوب المغربي (ضمن شروح التخليص) طبعة : عيسى البابي الحلبي ١٩٣٧م .

٣١- نظرات في علم البديع ، د . عبد المنعم سيد الأشقر . مطبعة الأمانة ، ط : الأولى ١٩٩٥م.

٣٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين البقاعي ، طبعة : دار الكتاب الإسلامي - القاهرة ، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م .

٣٣- النكت في إعجاز القرآن للرماني ، طبعة : دار المعارف بمصر (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن) .

✿✿✿✿✿